باب التراجم المتعلقة

﴿ أميل القرن التاسع عشر ﴾

(١٢) من هيلانه الى ارابيم في ٢٥ مارس سنة ـ ١٨٥

كتابي اليك وقد استقرّ بي النوى الآن في انكلترا اكاشفك فيه ماوجدته في هذه البلاد فأقول . استأجرت مساء يوم الاثنين الماضي عجلة اجتزت بها مابين القنطرة المسماة بقنطرة لوندره « لندن بريدج » والميدان المعروف بميدان أوستون وكأني بك سائلي عما شاهدته من عاصمة الجزائر البريطانية . انني لم أر منها شيئا او ان مارأيته لايكاد يكون شيئا يذكر . كنت أحس احيانا باني أدور في الظلام مع العجلة اثناء جريها في الميادين الفسيحة المحتفة بالبساتين والبيوت التي كنت اخالها مهجورة وكنت ارى عقيب ذلك من كوّتي العجلة شوارع طويلة تمتد ذات اليمين وذات الشمال تحيط بها المخازن التجارية من الجانبين ويمتد في كل منها على جانبيه صفان من المصابيح الغازية فكنت تارة اجدني في ظلمات متكاثفة الحجب وأخرى كنت اراني بين طوائف من تلك المصابيح غير منتظمة . وقد كان منظر ضوءها المنعكس على رصف الشوارع المبللة وعلى وقائع (١) الطريق وجملة اهل المدينة الذين كانوا يغدون ويروحون وسمات الهم والاشتغال بادية على وجوههم وجلبة الغوغاء (٢) التي كان تعاورها السكوت فجأة كل ذلك كان غريبا عندي غير معهود لدي . كانت السماء تمطر وكأن لا مطر .

(١) الوقائع جمع وقيعة وهي الماء المستنقع الذي يكون في الطين (٢) الغوغاء عامة الناس وجلبهم لغطهم الغير المفهوم

ذلك انها كانت ترهم ارهاماً خفيفاً جداً (١) يقول رائيه انه لا بد ان يستمر هكذا الف سنة . قد حصل في ذهني من سفري هذا في سدف الظلام مجتازة مستنقعات الماء جائلة فيما اجهله من الاماكن صورة مدينة لا اول لها ولا آخر فيها كثير من ضروب العظمة والبذخ وكثير من انواع الحقارة والمسكنة فهل هذه لوندره ؟ .

تبوأت النزل الذي كانت وصفته لي السيدة ... فألفيت كل ما فيه غاية في النظافة والهدوء والنظام . قدم لي العشاء في غرفة خاصة منه فيها كفايتها من الفرش وهي ملاصقة للغرفة التي اعدت لنومي . وقد راعني من خادمة المائدة جمالها البارع فبعثني ذلك على مراجعة ذاكرتي لاذكار القليل من الانكليزية الذي كنت تعلمته في المدرسة لمخاطبتها بلغتها فكانت اجوبتها لي في غاية الاختصار ولم ألبث ان فهمت من احتراسها في كلامها وظهور سيما الحيرة على وجهها ان الخادمات الانكليزيات لا يحفلن بخطاب المخدوم اياهن خلافاً للفرنساويات . ان الذي ادهشني كثيراً في هذا النزل ان اهله لم يسألوني عن اسمي ولا عن حقيقة امري عجباً لهذه البلاد التي لا يظهر ان اهلها يعتقدون اني ما أتيت بلادهم الا لقلب حكومتهم (تريد التعريض ببلادها الفرنساوية) .

اتباعاً لنصائحك قد اهتديت الى محل الدكتور وارنجتون وذهبت اليه في ثاني يوم من وصولي وقدمت اليه مكتوبك فما كاد يأتي على آخره حتى تذكر اسمك وتلقاني تلوح عليه علائم الوقار الفطري

أنشأ هذا الدكتور يخاطبني بالفرنساوية وهو يحسن الكلام بها بعض الاحسان فقال . « لقد اصاب زوجك في ارساله الى بلاد اجنبية فسترتاح نفسك الى المقام في انكلترا بما ستجدينه فيها من اعتدال الصحة الا اني

(١) ارهمت السماء جاءت بالرهمة وهي المطر الخفيف المتواصل

انصح لك بانْ تقيمي في الارياف فانها اجود مناخاً وأصفى هواءً فان السكنى في الحواضر العظيمة لاتلائم النساء في الطور الذي انت فيه الآن ولا تلائم الاطفال ايضا. وقد انشأ الكبراء من تجارنا في لوندره يفهمون مزايا الاقامة في القرى ويقدرونها حق قدرها فترينهم لا يعبأون بالسفر مرتين كل يوم في السكة الحديدية ولا بما يضيعه عليهم هذا السفر من الفوائد الكثيرة التي منها الحضور في ناديهم مثلا وذلك ليمتعوا اسرهم بقليل من نضارة الخضرة ومنافع الشمس فهم يصرفون بذلك نساءهم عن التردد على معاهد التمثيل ومواطن اللهو الليلي . لكل امرئ منهم نصيب من فائدة هذه الاقامة وللاطفال الحظ الاوفر منها حيث ينشأون في كمال الصحة من هذه المعيشة المطلقة في هواء الفضاء ولا يكاد يرغب عن ذلك الا الفنجات المتورّنات (١) اللاهيات بالتافه والمحقرات . ولكن ما الحيلة في ارضائهن وللأمومة واجبات لا بد من ادائها . تأملي في الاطفال الذين يتربون في المدن الكبيرة ألا ترين معظمهم شاحبي الالوان سقيمي الاجسام كالنباتات الموشمة (النابتة) في الظل المحرومة من ضوء الشمس وحرارتها. اتظنين انهم على هذا الضعف يزدادون في عقولهم بقدر مايخسرون من صحتهم ؟ كلا انني لا ارى هذا صوابا لان جوّ المدن الذي افسده مافيها من ضروب اللذائذ وصنوف الاعمال لا يلائم بحال من الاحوال نموّ العقل الخلقي وان الاطفال ليبلغون سن الرجولية قبل اتيانه بتأثير تلك الحرارة الصناعية التي في المدن الا انهم في الغالب يكونون رجالا ناقصين لا يبلغون في الكمال الدرجة المطلوبة »

فاه الدكتور بهذه الكلمات الاخيرة وابتسم ابتساما انتهى بظهور

(١) التورّن المبالغة في التطيب والتنعم

خطوط افقية على وجهه السكسوني المستدير الذي يشرف منه على خديه شعر الصدغين القصير الذي قد وخطه الشيب ثم استانف الخطاب فقال

دعني اتولى امر سكناك في الخلاء فان لي صديقا يملك في قرية مرازيون بيتا للنزهة فيه شيء من الجمال والنظام وموقعه تجاه خليج بنزانس وهو يبحث عن مستاجر يؤجره له بجميع اثاثه ورياشه لانه على وشك الرحيل الى ايطاليا للاقامة بها لاسباب صحية . فأنا ارغب اليك في الذهاب الى هذا البيت ورؤيته وأحثك على ذلك وأرى ان في هذا السفر تسلية لك وترويحا واني لو كنت طبيبك لكان من اوّل ما اصفه لك تبديل الهواء . كوني على ثقة بان آلام النفس تزول بتغير المؤثرات فقلما يوجد من هذه الآلام ما يتعاصى على هذا التغير كما ثبت لي بالتجارب . فان الانسان اذا رأى مشاهد خلوية جديدة يحيي حياة جديدة . وليس لي ان امدح لك اميريّة (كونتيّة) كورنواي (١) فانها مسقط رأسي . على ان الناس قد اجمعوا على القول بانها اكثر جهات بريطانيا العظمى اعتدالا في الاقليم وانها هي التي يعيش في ارضها الريحان والعطر والعود معرضة لهوائها المطلق في جميع الفصول . ان كنت ممن يروقهن منظر الصخور فانك ستشاهدين هناك منها جميع الاشكال في ابهج الاوضاع واجدرها بالتصوير . أنا لا اعرف حق المعرفة مقدار الاجرة التي يطلبها صديقي في سكنى بيته لكني لا اشك في انه لا يخرج عن الاعتدال فيما يطلبه . ستجدين في بنزانس زوجتي السيدة وارنجتون فانها هناك هي وامرتها حتى الآن وستغتبط باستقبالك . اما أنا فاذهب لزيارتها واستنشاق هواء مولدي كلما تيسر لي الخلاص من اشغالي في لوندره فاننا معشر الانكليز لا نقدر على اطالة الثواء

(١) الكونتية هي ارض الكونت وهو الشريف من اشراف فرنسا الغابرين

في مكان واحد فالحركة والفضاء من حاجاتنا. ما كان اجدرنا باختراع الآلة البخارية وقد اخترعناها ولا عجب. واصبحنا بسبب هذا الاختراع اقل الامم تغيراً فاننا مع سفرنا الدائم في اقامة مستمرة لاننا في اوطاننا اينما كنا.

افترقت انا والدكتور على احسن حال من الوفاق والمودة وقد خاطبني في شأنك بما شف لي عن كثرة اجلاله لك واعظامه لقدرك ولقد لمح لي مرة واحدة في مطاوي كلامه تلميحاً خفياً الى ما أنا فيه من الفرقة الحاضرة فأبان لي به عن عطف عليّ وميل اليّ ولم يسترسل استرسال الناس في عبارات التعزية والتسلية التي كثيراً ما اذلتني وهضمتني حق ادلالي بصفة الزوجية. تم الاتفاق بيننا على ان اسافر في الغد الى كورنواي وانما عجلت بالسفر لاستقر في مكان ما وقد رضيت هذه البلدة لي مقراً لان جميع الامكنة التي لا اراك فيها سواء عندي

لما وصلت الى بنزنس اثناء الليل تلقتني السيدة وارنجتون عند نزولي من عجلة المسافرين وكانت في انتظاري لان زوجها كان كتب اليها بذلك. اذا اردت ان تتخيل صورة هذه السيدة فمثل لنفسك امرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ليست حسنة الوجه ولا دميمته ولكنها محبوبته سوداء العينين والشعر خنساء الانف عظيمة الفم باسمته سمينة قصيرة على انها خفيفة نشيطة قد أوتيت حظاً وافراً من الحنان والرأفة. لقد كثر ما لاحظت انه في بعض الاحوال يوجد بين شخصين مختلفين في الذكورة والانوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين افراد اسرة واحدة مع ان كلا منهما يكون اجنبياً من الآخر من كل الوجوه. اتدري من الذي حضرت صورته في ذهني لما وقع بصري على السيدة وارنجتون؟ ذلك هو صديقك يعقوب نقولا خلتني اراه

بذاته في زي امرأة . حمل امتعتي خادم كان يصحب هذه السيدة فوضعها في عجلة ركبناها فاوصلتنا الى منزل الدكتور الريفي . لهذا المنزل منظر بهيج اذا شوهد ليلا في ضوء السماء فانه لما كان مبنيا بالصوان كمعظم بيوت التنزه الخلوية والاكواخ التي في تلك الجهة كان لحجارته صفائح من اليرمع (١) والمهو (٢) تلمع كأنها شهب تساقط من القمر . وفي النهار ايضا له نوع آخر من جمال المنظر فانه قائم في وسط حديقة من الاشجار المجلوبة من البلاد الاجنبية ذات الالوان اللطيفة المختلفة وينبسط على طول مقدمه ايوان مسقوف تتسلقه شجيرات الغوشياء (٣) التي ترتفع ارتفاعا غير معهود فهو مزدان من داخله وخارجه بزينة بديعة من الازهار لم ترعيني مثلها ابداً . ان لبيوت النبات الزجاجية المحل الاول في انتظام هذه الدار على ما ارى . لا جرم ان مثل هذه البساتين المسقوفة بالزجاج تزيد المعيشة الاهلية نضارة وحسنا . الغرفة التي تفضل عليّ أهل هذا البيت الكريم باعدادها لي وأحلتنيها السيدة وارنجتون نفسها بما أوتيته من كامل اللطف وفائق الظرف يخالها الانسان جنة لو ان للارواح الوحيدة الجريحة أفئدتها من الحزن جنة في هذه الدنيا ... من محاسن هذه الغرفة اني عند ما أهب من نومي فيها أسمع تغريد القنبرة فيروقني لحنها .

السيدة وارنجتون هي والدة كاملة عاقلة فانها تقسم وقتها قسمين أحدهما لتربية أولادها والثاني للعناية بامر ازهارها ولها من كل قسم منهما شيء من الفراغ

(١) اليرمع حجارة بيض تلمع في الشمس (٢) المهو حجر ابيض يقال له بصاق القمر

(٣) الغوشيا شجيرة افرنكية معروفة بجمال شكلها وطول بقاء زهرها وتنوع ازهارها في اشكالها والوانها وسهولة غرسها وهي من اشجار الزينة

يكفيها للمطالعة وهي على بعدها عن الدعوى بالاحاطة بالعلوم في المنطوق والمفهوم لها في طرق الاستدلال على مواضيع شتى أحكام صائبة وآراء سديدة. اسرة هذه السيدة يعجب بها من من يراها فبنتاها الكبيرتان اللتان احداهما ربما كان عمرها سبعة عشر ربيعا - كما كان يقال في تقدير السن سابقا - لكل منهما وجنتان يذوب منهما الورد غيرة وحسداً. وبعد هاتين البنتين صف من بنات أخريات وبنين يتكون فيه من اختلاف رؤسهم بالصغر والكبر وتباينهم بالطول والقصر نظام يحوي أجمل الفروق وأبهاها. كثيرا ما كنت أسمع ان النساء الانكليزيات تثمر (كثيرات الاولاد) ولكن الله اكبر ماهذا الزخرف زخرف الشعور الشقراء والاكتاف المكشوفة والالوان الزاهية الفضة التي ما كنت أسمع بها! اه

آثار علمية

(بدع رجب) اذا خذل الله أمة من الامم فانها تختار الضار وتنبذ النافع وتأخذ بالشر وتدع الخير وتستبدل الرذائل بالفضائل والسعادة بالشقاء وتترك لباب الدين وتناهي بالقشور ويحسن لها علماؤها القبيح بالتأويل. ويكون هديهم عين التضليل. لاتحضر في هذا الشهر جمعة في مسجد الا وتسمع فيها الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم على المنبر حتى منبر الازهر والعلماء ناكسو رؤسهم لاينكرون على خطيب وانما يقرون الخطباء اقرارا. وقد اتفق علماء الحديث على ان كل ماروي في صيام رجب موضوع اووا ولااصل له ولنذكر بعض الاحاديث الموضوعة في رجب وصومه لتحذر منها فنقول. قال المحدثون «حديث» رجب شهر الله وشعبان شهري ورمضان شهر أمتي فمن صام في رجب يومين فله من الاجر ضعفان وزن كل ضعف مثل جبال الدنيا الخ موضوع وفي اسناده أبو بكر بن الحسن النقاش وهو متهم والكسائي مجهول.